في عدلون لي ذكرى...

"هناك شيء واحد لا يمكن للزمن أن يأخذه
منك: اللحظة التي تكون فيها حاضرًا بكل
ما لديك."

إرنست همنغواي

إهداء...

إلى جدتي الصامدة، الحيّة في ذاكرة القلب رغم أنها تحت التراب...

إلى البطلة المجهولة التي علّمتني معنى الحياة والتمرد... إلى ذكريات الماضي المبعثرة...

إلى أمي الحبيبة، الداعمة التي لولاها لبقيت تلك الأوراق مبعثرة في مقبرة الأدراج، غارقة في غياهب النسيان...

إلى بلدتي عدلون، حيث ترعرعت،وإلى بعورته، حيث أعيش حاضري...

إلى أصدقاء الطفولة، وجيران المحبة الذين شاركوني قهوة الحياة بحلوها ومرّها...

ودائمًا وأبدًا، إلى خالتي العزيزة (أمال)...

أهديكم جميعًا أصدق كلماتي، امتنانًا وتقديرًا.

☜موجهاً لكم سلامي☜

سلامٌ لعدلون ،كل السلام، سلامٌ لأحجارها البكماء،التي حاربت، بصمودها العدوان، سلامٌ لأشجارها الغريبة، إلى وجودي الدفين فيها، الذي إمتزج مع غبارها المتناثر في كل الأرجاء، إلى سكون لياليها، وصبحياتها التي تضج بالحياة،للأمل الذي يغرزه فلاحيها في كانون،ويحصدوه في نيسان، سلامٌ يخترق حدود الزمان والمكان، ليصل إليك يا إبنة الجنوب الأبية، سلامٌ لعدلون كل السلام...

عدلون (عروس البحر)

_عندما قرأت كتاب(في عدلون لي ذكرى) رحت أتهجّد الحرف وأعتصر رحيق

الكلمات لأعبّر عن إعجابي بهذا النتاج الأدبيّ

الذي فاح عبيره النّدي بين

السطور والصفحات...

فأديبنا الناشئ رسم فوق

قراطيس ورقية ، طالما حاكها فوق منول الزّمن ،

ليصوّر لنا أجمل ما جاد به خياله في سنين عمر مضى.

بالأمس كان (عمر) في عدلون طفلا"يسامر الكتب

ويصادق السّاعات، ويتجول بين جنائن عدلون الفردوسية وبساتينها السندسية،

ليضع بين أيدينا

ما تركته الأيام في ذاكرته

من روائع لا تنسى...

تلك السّنوات التي مضت وعبرت في سجل الزّمن ولّدت في (عمر) عشقا"ل

(عدلون) تغلغل في أعماقه ولم يغادر...

وكان رصيده الفكري أنه جعل الحب شعاره والصدق دثاره ، وغدا قلمه عصا"سحرية يرسم بها مشاهد من رائعات عدلون

لا يزال يحتفظ بها في ثنايا الذاكرة...

نعود ل (عدلون)...

وما أدراك ما (عدلون)

الأم القرية الغافية على شاطئ المتوسط ، والتي

تلتقي فيها أشواق الأرض

بآمال السماء فيومض اسمها براقا"بين أسماء القرى...

عدلون يا ملتقى الأحبة ومثوى من رحلوا ولكنهم في القلوب بقوا خالدين إلى الأبد...

عدلون هي دنيا هائمة بالآمال والأحلام والأماني...

وفي الختام ما عساي أقول؟

وقد وددت أن أصوغ (لأديبنا الناشئ)من كلماتي تاجا"من نسيج زهر عدلون الأبيض يعتمره ويرصّع به جبينه يوم يلقى كتابه(في عدلون لي ذكرى) النّجاح والتّألق ...

أي عاشق عدلون...

إرسم بخيالك الواسع الأفق الجديد ل(عدلون) واسرد

قصص الحب التي تضج بها حارات عدلون...

ولكن إياك أن ترتقي منابر الرّحيل وتلوّح برايات الوداع...

ول (عدلون) أعط الحب...

أعط العشق...

أعط كلّ ماتستطيع لأن عطاءك سيظل يخفق في القلوب نبضا"وشعرا"وحياة...

الأستاذه: آمال كرشت

مقدمة الكاتب

يقول غابرييل غارسيا ماركيز:

"الزمن لا يمضي، بل هو يبقى فينا."

وأقول أنا:

"تركت الزمان يمضي وأنا توقفت هناك في الماضي."

لطالما اعتبرت الكتب أجمل ما يمكن أن يكون...

لطالما كان شغفي بالقراءة والكتابة كبيرًا جدًا، فلا يمكنني العيش دون أن أقرأ أو أكتب...

أنا جزء لا يتجزأ من تلك السطور التي أنثرها على مفارق الزمن، أنا حكاية لا تتكرر، بلا نهاية، أنا أنتمي إلى عوالم الكتب، وليس إلى عوالم الوجود المصارعة هذه.

لكن، ألم يخطر في بالك لماذا أقرأ؟

لماذا أكتب؟

لماذا أفني عمري هنا بين الأوراق والأقلام؟

لماذا لا أجيد شيئًا سوى ترك هذه السنين تمضي حيث تشاء، دون أن ألتفت إليها، دون أن أعرف وجهتها، دون أن أمنعها من الاستمرار حتى؟

الجواب بسيط:

لأن بداخلي...

هناك في أعماق ذاتي طفلٌ يدعوني للكتابة، يدعوني للقراءة، للتعبير عن كل ما يختلج صدري، وخوابي قلبي، من سكر السنين، ليجد أجوبة على أسئلة طرحها ذات يوم دون أن يعثر على جواب لها حتى هذه اللحظة.

أكتب لأفهم من أنا، أأنا حقًا مجرد مادة تسير، بقامتي القصيرة تلك، بشعري المبعثر، بلحيتي غير المهذبة، بلباسي الأسود الدائم؟

هكذا عرفني كل من رآني، فيخفون ضحكتهم بين يديهم، وفي قلوبهم، أو يتهامسون فيما بينهم.

لم أعرف إلى يومي هذا ما سبب توهاني، ما سبب ضياعي، تشتتي وانعدام شغفي، ما سبب آهاتي، عباراتي، مواجعي وجراحي، بل لم أعرف يومًا من أنا؟ وما الغاية من وجودي؟

أؤمن بفرضية وجود هدف من أصغر تفصيل في هذه الوجود، ولكن لم أراني إذاً غير قادر على فهم وجودي؟

لم تستمر عواصف الذكريات، أشباح الماضي، بملاحقتي؟

كتبت الكثير...

الكثير من القصص...

من الروايات، التي صورت بها كل شيء، حتى حسبت نفسي ضليعًا في الكتابة، عبقريًا في إجاد الحبكات، لكن ها أنا ذا أشعر بأني غير قادر على الكتابة حتى عندما يتعلق الأمر بي، وكأنني أضحي أميًّا بلغة عشت عمري وأنا أتعلمها، وكأن الأوصاف التي كنت أجيدها قد رمتني هنا وعادت إلى بيت أمها، فغدوت فقيرًا في اللغة، ليعود المضارع أدراجه إلى الماضي، وتغدو كل أيامي الساكنة مكسورة كما قلبي الجريح.

الضمة فارقت جوارحي، فأضحيت كجندي في معركة طاحنة حسم فيها الفوز للعدو، حتى الشدة وجدتها تشد كل وجع حتى تضمن أنه لن يفارقني إلى الأبد، وهكذا وجدتني أقع أرضًا كأوراق الخريف، ما عدت أقوى على البقاء على غصن لم يعد ينتمي إلى أصولي، لم يعد ينتهج مبدأ وجودي، فرحت أسقط شيئًا فشيئًا نحو الحضيض، والهواء العاصف الشامت يعصف بي بكل قوته حتى يضمن أنني لن أنهض مجددًا، وها أنا أرى نفسي ألامس قاع النسيان، ألامس الهاوية، ألامس النهايات التي لم تبدأ، ألامس أرض الغياب،

أرض الذكريات والنحيب.

أن تكتب عن لبنان، تحديدًا عن قراه...

يعني أن تتشرب من ماء صنين، وأن تتغذى من كروم زحلة، وتسمع القصائد النبطية من النبطية.

يعني أن ترسم عوالم أخرى لا يعرف عنها أحد، عوالم دينها العادة، عبادتها التقاليد، غذائها جهل تلقاه عقول الأطفال المرسل من حليب الأم قبل الأفواه. دائمًا ما أكتب عن القرى، عن ظلم الفتاة هناك، عن أناس يعيشون على الهامش، أنا لا أكتبهم بإرادتي، أشعر وكأنهم هم من يدعوني للكتابة، هم من يطلبون ذلك. أراهم وكأنهم وجوه أشباح تتوسد غرفتي الخالية من كل شيء حتى مني أنا رغم تواجدي فيها. يلتقون من حولي يلفون رؤوسهم ذا الشمال وذا اليمين، يدعوني لأذكرهم، فيختالون قلمي ويكتب كل وجه فيهم قصته الخاصة ووجعه الخاص...

عدلون...

هي أرضي، ومسقط رأسي، ومنبع حكايتي هذه.

هناك تربيت، وكان من جميل حظي أن أشهد بواقي حياة القدماء، قبل أن تجتاح الأبواب المتطورة تلك القرية. فكان من نصيبي أن أرى العين التي كان يتزود منها سكان القرية بالماء، وقنديل الكاز الذي تسرد لي جدتي بقربه في كل ليلة حكاية "ليلى والذئب" و"علي بابا والأربعين حرامي". تلك القصص كانت بداية رحلتي التي لم تنتهِ إلى عوالم الوهم. فرأيتني هنا اليوم أحلق بأجنحة من رماد إلى مجهول المكان والزمان.

أبحث الآن عن وجودي هناك في طرق اللا عودة، عن أناس أدرك حق الإدراك أنهم لم يعودوا أبدًا، لأن بعضهم أكلت ملامحه التراب، وآخرون وقفوا على شفير حفرة من النسيان. نعم، هذه عدلون، قرية العابرين في هذه الحياة،

هي أولئك الذين يرحلون دون أثر كما يولدون، هم الذين يعيشون فقط من أجل لقمة عيش، فترى جباههم مرصعة بحبوب العرق والتراب. هم الغائبون الحاضرون، المتواجدون في كل زمان، الراحلون الباقون، المخلدون بنسيانهم عبر رحيل الأيام.

لم أكن شاهدًا فقط عليهم، بل شهدت أيضًا على صاج الخبز المرهق هناك...

لفات العجائز من حوله في كل صباح...

كيف كان يتغذى على حرق جلودهم المترهلة، فتضرب برأسه النساء مدات العجين لتُلصقها على سواد رأسه، وكأنها تضرب بقايا الذكريات، لتطلق من بعدها تنهيدة يطول لها الزفير، يخرج الهواء من فمها معاتبًا هذه الحياة، مرارة العيش هناك، مرور السنين، الشيب والتجاعيد، لترسم بعدها ابتسامة كاذبة تخفي تحتها آلاف المواجع، ليزيد من بعدها الحر الشديد بفعل نار الحطب التي تغذي الصاج، فتخلع إحداهن منديلها عن رأسها وتنفضه. نافضةً معه غبار الأحلام المتعلّقة تلك، لتضمن أنها لن تحلم بأكثر مما فُرض عليها، ثم تعيد حزم خصل شعراتها البيضاء المخضبة بالحناء وتربطها نحو الوراء.

هكذا هي القرية...

هذا ما تركته لي من ذكريات...

هذا ما أحمله وأعبه في صدري، من تلك اللحظة التي رفعت فيها منديلاً أبيض أودع به الأحباب راحلًا نحو المدينة، تاركًا تلك القرية ورائي...

هناك في تلك اللحظات حسبتُ أنني سأنسى كل شيء...

ستسير الحياة وتمضي وكأن شيئًا لم يكن...
لكنني كنت مخطئًا جدًا...
فرأيتني هنا اليوم....
الآن أجلس خلف مكتبي الطريد هذا وأكتب عنها، بعد صراعٍ خسرت فيه دام لثلاث سنوات...
أين عدلون اليوم في لبنان...
لا أدري تحديدًا أين هي، ولكن أعلم أنها أقرب إلي من حبل الوريد، متواجدة في كل صفحة من صفحات مذكراتي...
بكل حكايتي...
عدلون هذه التي سأحدثكم عنها في ما يأتي من صفحات ليست سوى عالمٍ وهمي من صناعة خيالي الجامح، من نسج خيوط ماضي مبعثرة أحاول جاهِدًا جمع فلتاته، لا تبحثوا عن عمر هذا الذي في هذه القصة أو عن أي أحدٍ متواجد هنا...
جميعهم لا وجود لهم...
جميعهم ماضٍ، جميعهم مذكرات، جميعهم لعنات تبيت معي إلى هذا اليوم...
_ عمر المغربي 12/2/2024

الفصل الأول

موعد مع الذكريات

البداية (١)

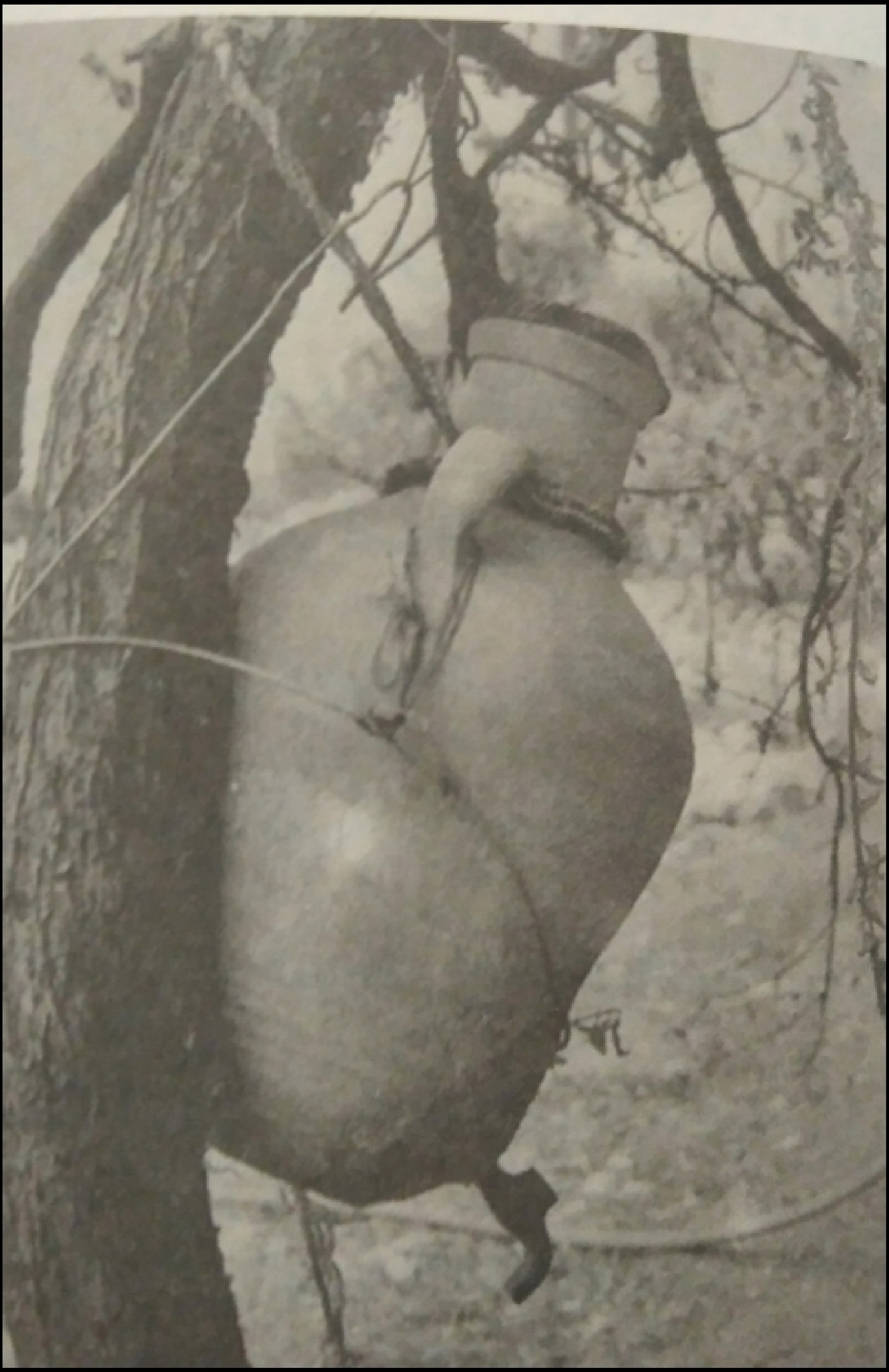

الفصل الأول

(موعد مع الذكريات)

بعورتة عام٢٠٢٤

ساعةً بعد ساعةٍ...

يومًا بعد يومٍ...

يمرُّ عمري الكئيب، ويصبح شبابي كما لو كان كهلًا في ذروة المشيب. يومًا بعد يومٍ، تبحث نفسي عن كيانٍ لها في دفاتر النسيان. أصبحت أنا ومشاعري جثةً على قيد الحياة. لا تسألوني من أنا، فأنا جرحٌ ألفته سنين الضياع.

حبٌّ أحرق كما يُقال...

لماذا كل هذا؟

ما الذي تريده منا الحياة؟

أسئلةٌ لم أجد لها إجابةً سوى "أنا"...

بقيت تائهًا وسط ركام الذكريات هذه...

أشعرُ بأنّي وحيدٌ في دنيا الشعور..

ذكرياتٌ عاشت وما زالت تعيش معي منذ سنوات، جعلت مني إنسانًا خائر القوى، محطّم المشاعر،جعلت مني عجوز يروي ترهات أيام الحوالي هنا، بين السطور.

ها هو ذا ينظر من خلال نافذته الصغيرة، إلى العالم الخارجي الكبير. عرباتٌ تأتي وترحل، وكأنها تتسابق لهدفٍ مجهول...

صوتُ الأطفال، صراخُ البائعين، صياحُ جارتي وهي تُفاصل البائعين في الخبز والحليب والأقمشة...

كلها صورٌ أصبحت ترافقني في يومياتي، باتت جزءًا مهمًا في مذكراتي. نعم، تلك الصور التي أرسمها بالأحرف فوق أوراقٍ بكماء...

سطورٌ أنشدها وأنا أتسكع في زاويةٍ من زوايا غرفتي الساكنة، تلك الجدران البيضاء، هذه الخزانة الخشبية، ذلك السرير ومكتبي الصغير والكتب التي تناثرت فوق المنضدة، في المكتبة القابعة بالقرب من مكتبي، على الأرض، في كل مكان، كل هذه اللوحات باتت غذائي اليومي المرير...

لم أجد منفذًا للهرب من هذا الوجود القاتل سوى الكتب التي صنعت حياةً أخرى بعيدة عن عالم البشر هذا. عوالم أرسمها كيف أشاء في مخيلتي، وأكتب ما أرغب من الأفكار. هذه الكتب صنعت لي خيالًا، بل الصحيح أنها صنعت لي عوالم. ما أن أجلس بمفردي حتى أرى نفسي قد انسلخت من الوجود وارتفعت

حتى بلغت طريقًا زينته ورصعته الزبرجد والياقوت. شخصياتٌ رسمها عقلي، أحداثٌ شيقة من وحي الخيال. هذه اللحظات التي أنسلخ فيها من الواقع هي اللحظات الوحيدة التي تدخل البهجة إلى قلبي.

وهكذا سارت أيامي...

النافذة...

الأصوات، والخيال...

أستيقظ في كل صباح، أحمل حقيبة عملي، أستقل سيارة الأجرة، أدخل إلى مكتبي، أجلس خلفه، وأكبُّ كل النهار طاقتي على الآلة التي أكتب عليها:

«لا تنسَ مقال يوم غد يا عمر.»

«هل أخذتَ موعدًا مع الوزير؟»

«أريد منك أن تنسخ لي هذه الأوراق بسرعة.»

مكتب البريد حيث أعمل...

مشهدٌ جديد يكمل أحداث قصتي...

أيامٌ جميلةٌ أخرى عشتها في ذلك المكتب، حتى بتُّ أكره الكتابة...

أصبحت تلك الآلة اللعينة عذابي اليومي...

كم كنتُ مغرمًا بالكتابة وكم أكرهها اليوم! فقد أختفت أناملي فوق أزرار الآلة الكاتبة، وانقضت أيام شبابي وهي تتلوث بحبرها الأسود...

ورقةٌ ترحل وتأتي أخرى...

وترحل مع كل ورقة ذكرى لترحل مع آخرها.

لا مجال للخطأ، حدث صغير يكلفك إعادة نسخ كل ما كتبت...

وهكذا مضت أيام عمري، حتى أعود عند الليل إلى منزلي، أضمُّ الفراش بكل قوة، كأنّي أضمُّ حبيباً التقيته بعد غيابٍ طويل...

وتؤنسني حبال الخيال حتى أغفو لأستيقظ مجددًا على تلك الأصوات، ثم أرحل إلى عملي.

ما زلتُ إلى يومنا هذا أتساءل:

كم من ذكرياتٍ رائعة تعيش في دفاتر الذكريات؟ كيف مضت هذه الأيام بسرعةٍ فائقة؟ كيف انقلب حالنا إلى هذا الحال؟

وها أنا ذا، ذاك الرجل العجوز، أتأمل من نافذتي حركة الحياة. ابتساماتٌ عابرة، نظراتٌ حائرة، وجوهٌ شاحبة، وأخرى تضجُّ بالنشاط والطاقة.

ذلك العجوز الذي يقف أمام النافذة يتأمل أدق التفاصيل في العالم الخارجي، كأنّه يحدثهم، يدعوهم للعيش، يدعوهم لعدم الاستسلام. تخاله يقول:

«لا تتوقفوا، لا تفقدوا الطموح، حاربوا، ولو أنّي حاربت ما كنت هنا.»

ثم يسند رأسه إلى حافة الجدار الذي يواجه النافذة، ويطلق العنان لآلة الذكريات أن تعجن له قصص الماضي من جديد...

يذرف دمعةً حاول جاهدًا إخفاءها، دمعةً ثائرة، دمعةَ تأنيبٍ لوجوده...

تنهال هذه الدمعة كأنها فراشةٌ خرجت للتو من شرنقتها، طائرٌ تحرر من سجنه وأخذ يطير ويطير إلى ما لا نهاية...

طيري أيتها الدموع فوق وجنتي، كوني كقطرات الندى فوق أوراق الأشجار، كمطرٍ غزير، كمحاربٍ شجاع...

لا تتوقفي، لا تمسحي وجودك، فأنت وسيلتي الأولى والأخيرة للتعبير...

كوني كحبات المطر على ورود البيلسان، زيديني مقلتي بلآلئ أكثر، زيديني بالدموع يا عبرتي، زيديني...

ثم يُخرج زفيرًا دافئًا ويقول بنبرة استسلامٍ وحزنٍ مقتضب:

«آه يا عدلون»

ها هي قواربي المحطمة عادت للإبحار في بحار الوقت والزمن، راحت تجدّف بمجاديف الذكريات لتعود بي إلى الماضي، إلى أجمل ساعات عمري، مع قطرات المطر التي ترشق وجودي بحجارها اللعينة. فتعود وتعود إلى الماضي، لتقلع عكس الزمن، عكس الساعات، لتعود إلى:

قريتي، طفولتي، محياي...

الفصل الثاني

في سفح الذاكرة

البداية (٢)

الفصل الثاني

(في سفن الذاكره)

عدلون عام ٢٠١٠

في أرضٍ بعيدةٍ كلَّ البُعدِ عن وجودِ الإنسانِ، في قريةٍ جنوبيةٍ في لبنان، قُرى صغيرةٌ تقعُ بالقربِ من مدينةِ صور. هناكَ حطَّتْ رحالي، وهناكَ امتزجَ وجودي مع غبارِ الأشجارِ المنتثرةِ هنا وهناك، في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ. وضعتْ تلك القُرى بصمتَها الخاصَّةَ في وجودي الذي أُحياهُ الآن، وما زالت تُرافقُني في أصغرِ تفاصيلِ حياتي...

كم أحنُّ إلى أشجارِ الزيتونِ المُعمّرة، وإلى أشجارِ السنديانِ الصامدِ، وكذلكَ الرمَّانِ والتوتِ. أحنُّ إلى صباحياتِ الجاراتِ عندَ كلِّ صباحٍ، وإلى أولئكَ الأطفالِ الذينَ عِشتُ معهم، وبقربِهم نَمَت طموحاتي...

كم أشتاقُ إلى تلكَ السهراتِ العابرةِ في شهرِ رمضانَ مع الأحبابِ، وإلى ليلةِ رأسِ السنةِ عندما نلتفُّ جميعًا حولَ شجرةِ الميلاد. وأشتاقُ إلى تلكَ الحزينةِ، الفتاةِ الجميلةِ التي ظلَّت طفلةً مهما تقدَّمَ بها العُمر، تلكَ التي أكلَ الزمنُ صَباها، وأرهقَتها نيرانُ

صاحِ الحطب، الصامدةِ في وجهِ تجاربِ الحياةِ وصِعابِها، تلكَ التي علَّمتني وكبَّرتني، وأعطتني سرَّ البقاءِ: جدَّتي...

عَدْلون، كباقي قُرى لبنان...

فيها يمتزِجُ وجودُ الإنسانِ مع عاداتٍ وتقاليدَ جاهلةٍ يتربَّى عليها. تُخلقُ وتُخلقُ معها نعيقُ الغربان، نعم، ذلكَ الصوتُ الذي يُخيِّمُ على "عَدْلون"...

فهل مررتم يومًا من قربِ أشجارِها دونَ أنْ تسمعوها تنُوح؟ أو هل مررتم بقبورِها دونَ أنْ تسمعوها تَشْتكي لكم الحياةَ هناك؟

هنا بُستان...

وهناكَ كيان، هنا نهرُ "عَدْلون"، وهناك يُدفنُ طموح. كلُّ شيءٍ في هذهِ القريةِ مترابطٌ، وكأنكم خُلِقتم من طِينها. ورغمَ كلِّ تلكَ الشجونِ، يبقى الحبُّ الذي يَعْشَعِشُ بين صخراتِ بحرِها من أجملِ ما يكون. كم أَطْوقُ الآنَ إلى الجلوسِ هناك، أُراقبُ غروبَ الشمسِ معَ مَن أُحبُّ، وأُنشدُ لها ترنيمةَ ذِكرى تعيشُ معي إلى الآن. إذا مررتم بأرضِها فأَبلغوها عنِّي السلام، وأخبِروها أنَّني أَهْواها أكثرَ من كلِّ شيء، ولكن طموحاتي أكبرُ من أنْ تُحدَّها حدودُ الجهلِ والتخلُّفِ الذي رَوى بمياهِه حُقولَ التينِ والرمان...

ورغمَ كلِّ شيء...

ورغمَ كلِّ ما حدث!

لا أدري لماذا أشتاقُ لها يومًا بعدَ يوم. وكيفَ لا؟ وبها عِشتُ أجملَ قصَّةِ حُب... بها أَلَّفتُ وجودي ورَسمتُ كياني الغريبَ، البعيدَ عن سكَّانِ تلكَ القُرى...

من صِغري كنتُ متفرِّدًا ومتميِّزًا بفكري، الذي كانَ بنظرِ البعضِ انفتاحًا مُبالغًا فيه، بينما كنتُ أنظرُ إليهِ على أنَّهُ دَربٌ أسلكُهُ لكي أَنجو من بحرِ الهلاكِ الذي غرقَ فيهِ كلُّ سكَّانِها...

كنتُ متمرِّدًا بكلِّ ما تحتويهِ الكلمةُ من معنى، وما زلتُ كذلك...

ولكنَّ الذي اختلفَ اليومَ هو أنَّني أَجدُ وسيلةً للتعبيرِ بقلمي، بعيدًا عن صوتي الذي كانت تكتمهُ أيدي العاداتِ المتخلِّفةِ هناك...

وجدَّتي،!...

تلكَ الغريبةُ الحالمة، التي أتتْ إلى عالَمٍ غريبٍ عن عالَمِها...

نعم، عَدْلون عالَمٌ آخرُ لم يصلْ إليهِ بَشَرٌ بعد، أو لم يتمَّ اكتشافُها:

"جوهرةٌ نادرةٌ تختفي في أعماقِ البحارِ في محارةٍ ما".

هي تلك الحورية الجميلة التي هربت من بحر مدينة النبطية، من حيّ السراي تحديدًا، مع معشوقها البشري إلى عدلون...

من النبطية قطف جدي أجمل زهرة من حقولها الملونة والجميلة...

جدتي!...

تلك المرأة التي تنشر الربيع أينما تمضي، بأناملها الساحرة التي تظن أنها تُحيي كل زهرة تلمسها تمامًا كما فعلت بحياتي...

ولكن أو يدوم الربيع؟

﴿جدي؟! ﴾

وماذا أخبركم عنه؟

أأخبركم كيف أختبرت الحياة صبره؟

أم أخبركم كيف عذبته بسياط الطغيان؟

كلما حاول التمرد أو همّ بذلك، كانت الدنيا تقسو عليه يومًا بعد يوم...

وُلِد بين أسرةٍ لا ترأف بحاله.

في قرية عدلون ترعرع، بين المواشي، في الأنهار، وعلى سفوح الهضاب الصامدة.

هناك وبين كل تلك الأشياء ولد...

جدي كجنوب لبنان، قويٌّ، صامدٌ لا ينهزم أمام العدوان...

بقامته الفارهه بمثابة درع حصين، ولحيته الطويلة الكثه البيضاء...

هكذا رأيته للمرة الأولى عندما وُلدتُ.

رجل لبناني أصيل متمسك بعاداته وتقاليدهم الأم، أو هكذا كان يبدو...

ولكنني كنت أعلم أن جدي أعمق من ذلك بكثير...
كنت أراه متمردًا بكل تفاصيله...

عندما كنت أذهب معه إلى الخروب، ذلك المكان الذي رسم وجودي، والمكان المفضل للنزهة عند سكان القرية في الربيع والصيف. كنت أجد جدي يثور بمعوله على الصخر، كأنه يؤنّبه، يعاقبه على ذنب لم يقترفه. ولأن أولئك المتخلفين حكموا أن الرجل لا يبكي، لم أرَ إلى يومي هذا جدي يُنزل قطرة واحدة من الدموع، مما زاد من تراكم الجليد في قلبه، فأصبح غير قادر على التعبير.

حقول عدلون وبساتينها كانت دائمًا مليئة بالأشخاص: طفل يلهو هنا، وعجوز يجلس على صخرة. بثقتها، عدلون في قعر الجحيم معاقَبَةً إياها على ذنب كبير اقترفته. أشجار في كل مكان، تروي غصونها حكايات منبعثة من ألسنة نساء أهل القرية...

وماذا أخبركم عن نساء عدلون؟

نساء قويات أنجبتهن التجارب. نساء بألف رجل، إن أقدم أحدهم على مسّ معتقداتهن أو عاداتهن، حاربن بحكمتهن وأنجبن مقاومين...

كانوا يلتهون بنقل الأحاديث والأراجيف، وكوب القهوة يرتحل من يد إلى يد حتى يثبت فوق شفاه أحدهم...

وللأطفال مجلس بينهم أيضًا، حيث كانوا يستمعون إلى الأحاديث بتمعن دون أن ينطق أحدهم بكلمة. كانوا يرسمون نظرات الغباء على وجوههم، متظاهرين بأنهم لم يفقهوا ما تقوله النساء، ولكنهم كانوا أكثر خبثًا وذكاءً من ذلك.

كانت النساء حينها يرتدين العباءات اللبنانية الخاصة، ومنديلًا يلففنه أحيانًا إلى الوراء ومرة إلى الأمام. وكان نهر عدلون مكان تجمعهن...

فهو المكان الوحيد الذي كان في الماضي مرجعهم للحصول على الماء، للاستحمام، وللغسيل.

لذلك لم يجرؤ أحد من الرجال على الاقتراب من ذلك النهر، فكان النهر وكأنه "منطقة محرمة" بالنسبة لرجال عدلون. هكذا كنت أسمع من أفواه كبار الضيعة! ...

وما زلت أتصورهم في مخيلتي الآن، كأني رسام يرسم لوحة زيتية عريقة:

أرسمهم وهم يغسلون الملابس ويحتسون أكواب الشاي الدافئة في صبحيات كانون القارسة والقاصية فيذبن ذلك الجليد الذي تراكم في داخلهم من قصوة التقاليد، بدفئ الشاي الذي يرسل لنفوسهم الهدوء.

ذلك النهر لم يكن كأي نهر!

بل هو قصة تروى مع كل تسريب للماء فيه...

كنت أجد ألف حكاية وحكاية فيه، نسجتها تلك النساء، وكأن النهر أيضًا كان يستمع إلى أحاديثهن بشغف!

ولا أخفي عليكم، لم تخلُ القرى من شاب طائش حاول التجسس أو الاقتراب من هناك...

كما كان يروي لي جدي عن قصة حسان!.

لطالما أحببت أن يرويها لي كل ليلة، عندما تنام الشمس في مهد البحر الشاسع، ويرقص القمر في كبد السماء، عندما تختنق الأنوار وتخلو الشوارع من كل جار، ويشتعل فتيل الكاز في القنديل...

حسان...

كم كان هذا الرجل معتوهًا؟!

وعلى الرغم من أنني لم أعِ تلك الحكايات جيدًا، كنت أستمع إليها من فم جدي المنبثق بشغف...

وإلى يومكم هذا، يا سادة، ما زلت أسخر من هذا الرجل الساذج.

كان حسان حسب ما حدثني جدي، في العشرين من عمره محبًا لإحدى فتيات القرى...

ولأنه لا ينتمي إلى عدلون، فإنه وُضع في سجل "الغرباء".

رفض والد الفتاة أن يزوجه إياها، فأصرَّ على ملاحقتها دومًا...

وفي أحد الأيام، ظل يتتبعها إلى أن دخلت المنطقة المحرمة.

ومن دون أن ينتبه أو يلتفت إلى المكان الذي يدخله، شاهده أحد المارة يدخل هناك، فضربه. ولم تقف القصة هنا، بل اجتمع الجميع عليه وضربوه في ساحة الضيعة.

ومن حينها، اختفى حسان ولم يره أحد قطّ بعد هذا الموقف، لم يكن ذنبه بل كان ذنب عدلون.

لا أدري لماذا ألومها دومًا، ولكنني أدرك أنها السبب في كل مشكلة حدثت لأحدهم.

لأن الحب في عدلون كان مستحيلا! ، بل كان خطيئة عظيمة...

كان النطق بهذه الكلمة كالناطق بكلمة الكفر. لذلك، اعتاد العشاق على دفن مشاعرهم، واعتادت الفتيات أن يحيينا من دون حب، والرجل تمرن على كبح أحاسيسه.

فغدت الفتيات من دون مشاعر تذكر أو ووجود، وأضحت معالم الشبان بعيدة كل البعد عن التهذيب والتشذيب، لا أدري كيف لهم الجرأة أن يتساءلوا كيف تحدث كل هذه الخلافات بين الأزواج؟

هل أجيب؟

هل أصرع بكل مكونات فؤادي؟

هل آن الآوان لأصرخ بكل تلك المواجع؟

نعم!

السبب هو لأنك يا عدلون وضعت قانونًا بعنوان "لا للحب" واعتبرته خطيئة لا تغتفر، ومارستِ طقوس الزواج التقليدي الذي لا يوجد منجى أو مرتجى منه.

وكيف هذا الزواج؟

وكيف ينتج زواجًا غير مبني على الحب؟

ورغم رضوخ جدي كل الرضوخ لهذه العادات، قرر أن لا يركع أمام هذا القانون كما أخبرني...

أخبرني بأنه تمرد، وقد ظهرت في عينيه علامات النصر جلية وهو يحدثني، وكأنه حقق انتصارًا كبيرًا في معركته مع الحياة...

فقد تزوج جدتي عن حب وحارب من أجل الحصول عليها، بنى منزله بالحب، وأسقف سطحه برمال الوفاء، وتزوج تلك التي أسرت قلبه وجعلته تائهًا في دنيا العاشقين...

قرأت دائمًا هذا التوهان في عيون جدي، في انفعالاته، عندما كان يرى جدتي. كان عنيدًا لا يعرف طرق التعبير عن مشاعره، وجدتي لم تعرف كيف تحدثه عن مشاعرها خوفًا من أن تقع في ذنب الحب الذي فرضته القرية...

أخبريني يا عدلون:

لماذا الحب ذنب في قاموسك؟

ألم تعيشي لحظة حب؟

أو أنك كسِرت من قبل شخص أحببته بكل صدق؟

عن نفسي، ولدت هناك، نعم، لكن لم أتبع يومًا قانونًا واحدًا في هذه القرية، لذلك عشت عمري كله بحب، كان الربيع في حياتي دائمًا، وكانت أزهار العشق مزهرة دومًا في بساتين قلبي، وكانت أنهار الغرام تعزف لي دومًا سنفونية الحب المجهول.

كان خريفي حبًا، وصيفي حبًا، وشتائي كذلك. كان البرق بالنسبة لي بمثابة غزل، والرعد بمثابة حضن دافئ من شخص ما أحببته.

أخبريني يا عدلون،

هل تغيرتِ؟ أم ما زلتِ كما أنتِ؟

"غريبة"

"سجينة"

"منعزلة"

من أين لكِ كل تلك الدموع؟

كيف ألئم لكِ جرحًا ألفته سنين الضياع؟

لن ألومكِ بعد الآن لأنكِ أنت وحدك من ألفتِ لي أجمل سنين العمر!...

أروع الذكريات نسجتيها لي يا عدلون بمغزل الحب. نعم!

أحبّتني عدلون لأنها وجدت فيّ شيئًا لكي أنقذها من آلامها، ولكن خاب أملها عندما أبغضتها في الماضي، مثلما ما زلت أفعل...

ودار جدي، ذلك المنزل الذي كتبت بين سطور جدرانه أجمل الحكايات..

ذكريات أتلمسها الآن وأشعر بها...

بيت قروي صغير لكنه كبير بالمحبة، يقطن أمامه حقلاً صغيرًا، زينه حقل ورد جميل ألوانه تضج بالحياة، فتتجلى بها صور الأمل عندما تتراقص مع نسمات الهواء.

كنت أخال أن الربيع لا يرحل من دارنا، يظل يرقص في زوايا غرفته إلى الأبد.

بين أشجار هذا الحقل تربيت، كبرت وأنا آخذ من وردة سرًا دون معرفة جدي، لأعطيها لمعلمة اللغة العربية "غادة". ولكن اليوم مات كل شيء، وحكايات هذا الحقل انتهت عندما بنى خالي "حسن" منزله الحالي...

جدران بيت جدي كانت تروي لكم قصص الدهر، أساطير القدماء...

كم كنت أجلس هناك بمفردي، فأطلق العنان لخيالي والجدران تروي لي تلك الحكايات...

عالم آخر...

خيالي!

ذلك الجريح في ساحات المعركة، فردٌ مجهول في عوالم النسيان، نقطة استفهام في دفاتر الحياة، هو فاصلة تفصل بين الواقع المرير والحلم الجميل.

هنالك بنيت عوالم أخرى، لونتها بألواني الخاصة، ألفتها من كياني الشخصي، عوالم تعكس وجوهي في هذه الحياة، تعكس لكم قصة إنسان تائه.

خيالي هو المكان الوحيد الذي وجدت فيه مكانًا للتعبير بحرية.

كنت أرى وجودي كشجرة أرز قوية لا يؤثر فيها بطش الزمان ولا معالم الطبيعة. فرعها ثابت وبقوة بالأرض يتشبث فيها لآخر نفس. تلك الشجرة الأبية التي ترفض الركوع للعدوان هي أنا...

نحن باقون ببقاء أرزنا، سنعود، حتمًا سنعود يومًا!

بقلم كل كاتب، بصرخة كل ثائر، بصمود كل متمرد، ببندقية المقاومين الصامدين في جنوب لبنان، سنعود...

هكذا نحن اللبنانيون، نزداد قوة كلما قست علينا الظروف. نحب الحياة ونعيشها، نستمتع بكل لحظة فيها، لأننا نؤمن أن الشتاء لو مهما طال سيرحل يومًا، وسيزهر ربيعنا حياة، وسيبث الأمل في التراب، لتحيا ورودًا سقتها دماء الشهداء.

كل هذه الموضوعات حدثتني عنها الجدران، جدران دار جدي. وفي منتصف ذلك المنزل كانت تتربع هي، حورية من بحر الذكريات، درة ثمينة هاربة من محارة ما، ملكة قصر الأحاسيس، منتهى آيات الجمال. إنها جدتي "سلام"...

امرأة قوية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، كانت وما تزال مثلي الأعلى في كل شيء. امرأة ولدتها التجارب في أحد أحياء النبطية من أم تحمل بين جنبيها كل

معالم العطف والحنان، فروت بهما تلك الزهرة فأينعت دون أي شوكة غادرة. تربت وعاشت وهي ثائرة بكل وجودها. تعلمت في زمن منعت فيه الفتاة من التعلم، قانون الجهلاء الذي نص على قتل حلم الفتاة واعتبارها عارًا وغير فعالة بالمجتمع. كانت جدتي تهوى الكتابة والقراءة، وكأي أنثى في ذلك الوقت، حكمت عليها العادات والتقاليد بالزواج في عمر مبكر. تزوجت جدتي "سلام" من جدي "قاسم"...

ودار بهم الزمن إلى أن أوصلهم إلى أرض النيران، تلك الأرض اللعينة التي تسمى عدلون. هدمت الحب. جدتي سيدة قديرة، ترضى بما يرضي نفسها، بنت بيتها بالتعب والكد، كل حجر وضعته يحمل بين طياته المئات من الشجون. أحدث بيوت القرية في الوقت ذاك، أول بيت احتوى التلفاز والراديو، والعديد من الأدوات الكهربائية المعروفة حينها. وكما قسم الرحمن للجميع قسمته، كان لجدتي الطيبة قسمتها من الأولاد، فرزقها الله ثلاثًا من الذكور وثلاثًا من الإناث.

إن أردنا أن نفتح الآن دفتر التربية التي ربتها "سلام" لأولادها لن ننتهي هنا. يكفيكم أن أقول خير أم أنجبت وربت، وخير مثل يحتذى به. وأزدادت ضربات الزمن المؤلمة، صفعة تليها صفعة، وأشتدت عواصف كانون القارسة والباردة وأخذت تعصف في جدتي، حتى جعلتها غير قادرة على الحراك، وأضحت جليسة الفراش، وأبتليت بالعديد من الأمراض. هكذا تكون نهاية الأبطال، نهاية أشجع

امرأة، سلام تلك المرأة القوية التي لم تأب يومًا لظروف الزمن، ولم تركع أمام صفعاته القوية. ظلت لآخر نفس متمسكة بخيوط الأمل، والحلم، والتمرد.

الآن، فقد عرفت لماذا أكره العيش هناك!

لماذا كنت طامحًا للهروب!؟ للتحليق بجناحي الصغير إلى خلف شفق البحر الدامي، أن أبحث عن نفسي وسط ركام التكهنات هذه، أن أكون فراشة ترقص حرة بالأرجاء، طليقة لا يحدني فجر نيسان، ولا توقفني صرخات تشرين.

آهٍ يا دار جدتي...

آهٍ يا دار الذكريات...

فيك أَلَّفتُ أجمل الحكايات، فيك عاشت أشجع امرأة جاءت من غياهب الصعاب، روايات خانقة تتسكع في زواياك، فيك آهات الزمن الخؤون، كان أملي في العيش هناك، كقمَرٍ ينير ظلمة وجودي في الليالي، كنجمٍ يسبح في فلك التجارب إلى أن رمتني هذه الحياة في غياهب الجب، أشرق فجر الثاني من أيلول في سنة الألفين وسبعة، عندما بلغت الساعة الرابعة عصرًا، أبصرت عينايا هذه الحياة، رأيت النور بعد ظلمة رائعة دامت لتسعة أشهر، ولكن النور الذي رأيته كان بمثابة ظلام مرعب وكأنَّه كان أشد ظلمة من التي عشتها، وهنا رأيتها هي، بمنديلها الأسود، وثوبها الأبيض، وعيونها الخضروات، وأنفٍ كأنه حبة لوز سقطت من جنان الخالق. هي جدتي، تلك المرأة التي ربتني وكبرتني، وسقت

وجودي بماء التمرد، كانت أول من علَّمني الطيران في هذا العالم، وأول من مكنتني من العيش، علمتني أن الفرق بين المدرسة والحياة هو أن المدرسة تعطي الدرس ثم تجري الامتحان، بينما الحياة تجري لنا الامتحان لتعلمنا الدرس.

أنا من هناك، أنا من كل إنسان، من كل فردٍ يؤمن بحرية الفتاة، من كل شخص أخذ القلم سلاحًا والعلم دفاعًا، من كل واحد يؤمن بالاختلاف، لأن الاختلاف ثراء، الاختلاف تميز، من دون الاختلاف لم تكن هناك حياة، أنا من كل متمرد موجود، في كل متفرد. أنا الذكريات، أنا الماضي الجميل والحاضر الرائع والمستقبل الأروع، ولدت في قرى الزيتون وترعرعت في حقول التين والرمان، كبرت على المعول، ونضجت على صرير صاج الخبز المرهق، حقًا أنا قصة عنوانها الذكريات، نعم الذكريات، أسرابٌ من طيور الماضي تعشعش داخلك، ترسم لنفسها كيانًا خاصًا يرهقك، تصارعك في منامك، تحاربك في طموحاتك، تبقى جليسة الحاضر، وابنة الماضي، وعاشقة المستقبل. كنت أعتقد أن الذكريات تبقى فقط في الماضي، مجرد لقطة حدثت في شريط حياتي... ولن تتكرر... لكنني كنت مخطئًا جدًا، فهي تأسرك، تبقى بقربك حتى الموت، وبعدما تموت تنبت على قبرك وردة سوداء تعاتب الأيام والقدر.

جدتي أين أنتِ الآن؟

كم أشتقت إلى جلساتنا الممتعة، إلى ضحكاتنا الجامحة، إلى تخيلاتنا التي لم تحدها الحدود. كم أود الرجوع إلى الماضي الآن، لكي أضمك أو أحدثك ولو لمرة واحدة وأخيرة... أن أخبرك أين أنا الآن؟ وماذا فعل بي الزمان؟ وكيف شتتت الدنيا وجودي؟ جدتي، وبعد السلام أقول، كنت على حق عندما أخبرتني: "إنا آلات بشرية، نسير، لكن كل واحد منا يسير بدرب هو يختاره، ولكن المهم أن يكون على دراية كافية بالطريق الذي يسلكه، لكي لا يتفاجأ بالصدمات ويتوقف عند أول صفعة". وها أنا ذا لم ألتفت إلى تلك النقطة حتى تعثرت بأول تجربة وقعت بها. كم أنا بحاجة إلى نصائحك، وإلى بسمتك المفعمة بالحياة. لم يبق لي يا جدتي شيء سوى فتات من الذكرى تعيش معي، ولكنني ها أنا أكمل الدرب الذي أسلكه، أكمل حلمك، شغفك وحبك للكتابة، أروي للجميع عن بطلة مجهولة تسكن في دفاتر الماضي، عن ملكة قوية حكمت مملكة الحب بكل وفاء، عن تلك التي علمتني أروع الدروس وكانت بمثابة أم. أنت التي ربت قلمي، وعلمتني الحروف وها هي تنمو، تمتد على أوراقي تثمر ثمراً طيباً. وسأبقى، نعم، سأبقى صوت ذلك القلم الثائر، والإنسان المتمرد في وجه كل غاصب، في وجه كل العادات، وستبقين شعارًا للأمل وللتضحية إلى الأبد، يا قمة غطى أعاليها الثلج الأبيض، يا واديًا بالخضار تزينه وبأريج البيلسان والعنبر مفعم. ستبقين يا جدتي حية في قلب كل مغامر ضيغم، وسيظل ذكراك مخلدًا على مر السنين متجددًا. نعم، الموت لا يفني

العظماء بل يخلدهم تمامًا مثلما فعل مع جدتي. كان الحب لا متناهيًا في دارنا، فكنت أراه في جمعات الجارات عند كل صباح، هنا "أم محمد" وهناك تجلس "أم حسن" وتشاركهم الحديث "أم علي" و"أم ربيع". كنت أراه في فناجين القهوة التي تتنقل من فم إلى آخر. لقهوة جدتي مذاق خاص، فهي أقرب إلى سحرٍ يجمع الأحباب. كلٌ منهم أخذ مكانة على الردهة الخارجية للدار، صورة جديدة بمشاهد بال، حوار آخر في روايتي، وبات الحديث كأنه نهر جارٍ يندفق من ألسنة الأحباب. أحاديثهم، أذكرها الآن، أخالهم أمامي، على هذه الأوراق، يتبادلون أطراف الكلام، وتظل ركوة القهوة حائرة أي الفناجين تملأ. ها هي أم حسن تتربع في الزاوية وهي تخبر جدتي عن أحوال ولدها، وها هي أم ربيع، هاوية الزهور، تلك التي تستطيع أن تزرع باليأس أملًا، أن تضع في الميت عمرًا، أملٌ يحيي الأيام، و"أم علي" صاحبة الدكان الصغير، دكان الطفولة، ذلك المكان الذي خرج منه أطفال نمت أسنانهم على حلوى دكانها، لم يكن مجرد محل حلوى، بل كان مجمعًا للذكريات، فغالبية ذكرياتي أخالها هناك. إن قصدتم تلك الأماكن بالله عليكم قبلوا أصحابها أهل البركة، غازلوا بعيونكم الجدران المفتتة من بطش الزمن، اجلسوا واستمعوا إلى أحاديثها لعلها تخبركم عن طفلٍ حالمٍ سكن أراضيها.

آهٍ يا دكان الذكريات...

كم ترى مضت فيك أيام؟

كم صديق قابلته هناك؟

كم أملٍ بنيت بين أعمدتك القديمة؟

كان لها نصيبٌ أيضًا من القهوة...

وها هو ذلك الشخص المجهول، صوته يدوي الآن في مخيلتي. أذكره عند كل صباح:

"جارنا علي" بائع الخبز، كان لخبزه مذاقٌ خاص ومختلف...

كنت أألفه عند كل فجرٍ بعربته البيضاء الآلية، بابتسامته التي تدفن تحتها الآلاف والآلاف من الأحزان.

كان له نصيبٌ أيضًا من تلك القهوة، كذلك إخوته، ولا أنسى أحاديث العم "أحمد" فكل جمعة جمعتها بجدي، كل هؤلاء كانوا أبطالًا مجهولين في قصة حياتي. ولجارتنا "أم محمد"، تلك التي تمكث بالجهة الخلفية لدارنا، نصيبٌ من الأحاديث وفناجين القهوة. لطالما كانت قهوة جدتي مختلفة، لطالما كان مذاقها مختلفًا. أتسأل اليوم كم من عابرٍ في هذه الحياة شرب من هذه القهوة؟ كم من محب؟ من صديقٍ داعب أنفه رائحة البن التي تخاطب القلب قبل العقل؟ لم تكن مجرد شيء يقدم للضيوف، بل كانت أكثر من ذلك. كانت كعربون محبة، كوسام شكر، كخيوط سحرية تلتف حول القلب وتأثره. بهذا تحيا جدتي، بأحاديثهم العابرة، بفناجين القهوة، تحيا بذكرياتهم، بمحبتهم لها. هكذا تخلدت.

كم أحن الآن إلى تلك الشخصيات؟

إلى ذكرياتي معهم؟

كيف مرّ كل هذا الوقت بسرعة؟

كيف انقضت كل تلك الذكريات؟

حقًا لا أدري...

وعلى الرغم من أنني كنت بينهم وعشت كل هذه الأحداث، إلا أنني كنت وما زلت أشعر بأنني شخصية ثانوية في هذه الرواية...

ولكن ما أجمل أن أحيي جيران العمر بقلم صامت فوق أوراق دفينة، ما أجمل أن أذكر أحداثي معهم وتلك المواقف الجميلة التي رسمت وجودي اليوم...

مرت السنين عامًا وراء عام...

وكبرت..

وأنا ألعب هنا وهناك، في بيت جدتي، بالردهة المقابلة لمنزل خالتي "ورود"...

كانت تلك الفسحة هي مجمع الأحباب والأصحاب، كانت لا تخلو من ليالي الصيف، حتى في ليالي الشتاء، فقد قامت خالتي بتسكيرها من كل الجوانب وتحويلها إلى صالة شتوية. ها هو عقلي يرسم لي صور الجلسات من جديد، يعيد إلى بالي تلك اللحظات، فأرى العم "عصام" متربعًا في أحد جوانب الصالة، وأرى

النراجيل قد أُعدت، وأشاهد خالي "أحمد" وقد تسكع بنارجيلته في زاوية من الزوايا. ولخالي "حسن" دور في هذه الجلسات مع زوجته "فاطمة" عندما ينتهي من خدمته العسكرية. كأني أسمع الآن صوت قرقرت الماء في زجاجات النراجيل، وأنا أكتب.

كلها صور تعيش في مخيلتي، أحاديثهم التي تنتقل من فم أحدهم لتقع في أذن شخص آخر، ضحكات الأطفال، الأحباب، أولاد الخلان "حسين" و"حسن" و"محمد" و"علي"، وقد زينت دار خالتي فتاة سمتها "جنان". جميعهم كان لهم دور كبير في نشأتي. كلهم يتربعون الآن في غرف الذاكرة. أما عن نفسي، فقد كنت معهم، لكن خيالي كان هناك، في عالم الخيال، يحلق بعيدًا، كطائر شريد، كجثة عادت للحياة، كسجين فك أسرته بعد سنوات. كان خيالي يقطن في عالم آخر، عالم خلقته لي ليالي تشرين، ألفت جدرانه حكايات نيسان وآذار. بنيت فيه قصر الأحاسيس، وزينت جدران هذا القصر بصور من أشخاص عاشوا في مملكة حياتي، عابرين سبيل في قصة وجودي. فالجميع كان بالنسبة لي أشخاصًا ثانوية في رواية هذا الكيان. أما عن أصدقائي، فكان بعضهم من مقاعد الدراسة، نعم، تلك اللحظات التي كنا نتأفف منها هي الأحب إلى قلبنا الآن. ساعات قضيناها ونحن نلهو ولا نحسب للمستقبل أي حساب. لحظات نعود إليها الآن ونحن نستند على عصا العجز، نتفحصها بأناملنا المتجعدة. كانت مدرستي "عدلون" أول المدارس التي

دخلتها، قابلت فيها أجمل أصدقاء عمري، أفرادًا بادلتهم الأحاديث والضحكات. كان من بينهم "أيمن"، أول وأفضل الأصدقاء، وفيهم "علي" والكثير من الأشخاص، وفيهم كان صديقي "نصر الله". هؤلاء هم من رسموا وجودي اليوم، أبطال مجهولون في حكاية عمري. أتساءل:

أين هم الآن؟

كيف تسير أيامهم؟

هل ما زالوا يذكرونني يا ترى؟...

ومن الأصدقاء كذلك، من من كتب لهم الماضي الخاص بي حكاية مختلفة لهم، أولاد الخال "أحمد"، وهم "دعاء" و"قاسم".

فالأولى شاركتها مراحل الدراسة الابتدائية وتملكنا ذات الخيال، والثاني تسابقت معه إلى المجهول.

تمردنا على واقعنا المرير وسافرنا إلى عالمنا الجميل معًا. تسلقنا شجرة التوت معًا، تلك الشجرة التي يثور جدي غاضباً كلما اقترب منها أحد.

فكم انتظرنا قيلولة جدي عند كل ظهرية، من أجل أن نلعب بالقرب منها ونقطف ثمرها، ونتبادل جوانب الأحاديث. أما في رمضان، فلم نترك أي دكان في

الحارة دون زيارتها، فمن "أم علي" إلى "حنان" فالعمة "هنا" والعديد العديد من المحلات التي روينا بينها أجمل الروايات.

لنجتمع بعد كل هذه الدوامة على أدراج منزل الخال، ونحن نتبادل الضحكات، تلك التي باتت اليوم غذاءً يومياً أعود إليها الآن وأنا أنثر بعض الدموع فوق وجنتي، وأنا أتلمسها بكل هدوء، وأشتاق إلى "قاسم"، ذلك الصديق القريب، و"دعاء"، تلك البطلة المجهولة في دفاتر الحياة، تلك التي امتلكت نفس الطموح، بحيث تمردنا سويا ونشرنا التمرد في كل الأرجاء. كنا في كل مكان، شاركنا الأمل لكل صديق، طهونا معًا طعامًا لا يؤكل. فكم من مرة كدنا بها أن نحرق المنزل؟...

وتلك الصراعات التي كانت تجري بيننا،

من كان يتوقع أنها ستكون أجمل الذكريات يومًا ما؟ عندما نمسك بشعر بعضنا البعض، ونتشاجر، على من سيفلت شعر الأول لكي يفلت الثاني...

والآن كبرنا، وعبرت كل هذه الأيام كأسراب أيلول، ولم يبق منها سوى لمحة تجول بين الحين والآخر في البال...

الكثير من الشخصيات كانوا أبطالًا في حياتي. كيف أضحت ذكرياتنا سجينة الماضي؟

ولم أصبحت المسافات هي العدو الذي يفرق بيننا؟

كم أشتاق لتلك السهرات العابرة، لتلك الليالي الجميلة. أتألم اليوم وأنا أشتكي لكم عن خيالي، عن مذكراتي الصامتة، عن وجودي الغريق في بحار العمر والطفولة. و"عباس"، ذلك الصديق الذي جمعتني به الصدف، كان لقاؤنا الأول صراعًا، والأخير كان صداقة...

هي الحياة، حيث هو وجودي، طموحي، فكري العنيد، الذي حاول دائمًا الهروب والتفلت من أي قوانين...

أريد أن أعود، أن أكون هناك، سحرًا يطوف حول أشجار السنديان والرمان، أن أعيش كالخلد في تراب جنوبنا الحبيب، أن أتمرد على كل فكر عقيم، أن أتسابق أنا ورفاقي تحت قطرات المطر المتساقطة، أن نجتمع مع الأحباب حول مدفئة دار خالتي "ورود" في ليالي كانون العاصفة والباردة. أن أصحى في كل صباح على صوت الجارات...

سلامٌ لك يا جدتي، سلامٌ لأروع اللحظات، سلامٌ يكلله دموع العشق والحنين، سلامٌ يختصر الساعات، يخترق الأماكن والوجود وهذه الحياة. سلامٌ لحلم حملتني إياه، وها أنا ذا أعيش معه اليوم كفارس جريح في ساحات النزال، طفلاً فقد أمه، عصفورًا لا يستطيع الطيران، أريد الطيران من جديد، لكن عبثًا أحاول...

تغيب شمس وتشرق أخرى...

وها هي زوجة خالي "حسن" "فاطمة" تبادلني أطراف الحديث، امرأة شريدة، طريدة عالم الخيال. أحاديثها مفعمة بالحياة، كانت كوردة جميلة تليق بحقل خالي الجميل...

أما لجلسات خالي "أحمد"، فكانت نكهة خاصة، فهي مزيج ما بين الثقافة الدينية والسياسية. خالي صاحب علم غزير، كم أهوى الصمت عندما يتحدث وأنا أنصت إليه بكل تمعن. رسم الزمن ملامحه، وشكلها القدر، فظهرت السمات العربية بارزة على وجهه. رجل أنجبته التجارب، فهو محارب من الطراز الأول، شرس بوجه الحياة. أما عن خالتي "زينب"، فهي عالم آخر، يحيط به كل الحب. تربيت قربها وتعلمت منها معنى الصبر، فهي امرأة كما يتصور لك مظهر الفتاة الشجاعة، المتمردة، المحتسبة، صاحبة نظرة ثاقبة لكل شيء. وكان لأولادها الثلاثة دور كبير في تأليفي لذكرياتي اليوم. ف"فريد" كان صديقي الأول، كذلك هم أولادها "حسن" و"حسين"، أصحاب الطفولة...

يقال إن الشخصيات الثانوية هم الأفراد الذين يمرون، كعابر سبيل، أو يكونون بمثابة طائر صغير وسط أسراب الطيور الكبيرة، لكني أقول إن الشخصيات الثانوية أكثر أهمية من أبطال القصة، لأنهم هم المسؤولون عن تغيير مجرى أحداث القصة. هم نقطة فاصلة بين حدث وآخر. لذلك، البطولة ليست بأن تُذكر كثيرًا، بل بأفعالك، بأعمالك التي تترك أثرًا طيبًا في القلوب قبل العقول. هكذا أخبرتني

تلك التي تقطن بين الكتب، صاحبة الطموح والحلم الكبير، الغريبة، الشريدة بعوالم الخيال، هي الحالمة، وصاحبة الحلم المرهف الذي وجدت في الكتب مكانًا للتمرد مثلي. هي المعلمة والمربية "فاطمة حاجة"، التي علمتني كيف أستطيع أن أحول قلمي من لا شيء إلى سلاح فتاك. وأذكر أيضًا المعلمة "بتول"، التي كانت أول من غذّت مهاراتي بكلامها الحماسي، فلقبتني "بالمخترع الصغير"، وإلى الآن لم أنسَ تلك التي تلمست قلمي، وكانت أول من قرأ كتاباتي بعد جدتي معلمتي "غادة"، التي وجدت فيّ إنسانًا ناجحًا مستقبلاً وشجعتني على هذا، وها أنا ذا. ولكن هي وحدها، تلك البطلة المجهولة في دفاتر الماضي، البحارة التي تبحر بسفينتها إلى عالم الخيال، من وجهت قلمي، وكانت دائمًا بقربي، تركتها للنهاية لأنني إلى الآن لم أدري كيف أشكرها. التي زرعت فيّ ذلك الحلم الجميل الذي أنثر حصاده اليوم فوق كتابي هذا، هي أخت جدتي الخالة "أمال". هؤلاء هم الشخصيات الذين أدوا أدوارهم بجدارة في مسرحية الذكريات...

عدلون، آهٍ، كم كان شتاؤك مرعبًا، وربيعك جميلًا، وخريفك قاتمًا، وصيفك لهيبًا. كنتِ امرأة جميلة بكل حالتك، بكل أوصافك، اخترتِني لكي أكون ذلك الفارس المجهول الذي يأتي على حصان أبيض من عوالم الوهم، يحمل بيده صمصامًا باترًا يحارب به أوجه التخلف والجهل. لكن عذرًا، فالجهل، يا سيدتي، زرعه الفلاحون

في أرضك عندما زرعوا أشجار الزيتون المعمرة، والتخلف روى سنديانك الصامد، وأنهارك، تلك التي روت الأطفال بالعادات والتقاليد الرجعية.

الفصل الأخير

عودة قوارب الزمن

النهاية (٣)

الفصل الأخير

(عودة قوارب الزمن)

بعورتة عام ٢٠٢٤

وكان للربيع أن يذهب يومًا ما، هكذا رحل من حياتي. في اليوم الحادي عشر من الشهر الأول من سنة الألفين والتاسع عشر، رحلت جدتي مع فَجْرٍ، بعد نعيق بومٍ دام كل الليل. وتغير كل شيء مع رحيلها. تفكك جمع الأحباب، ورحل كل منهم ينشد "آه ليلاه"، وباتت الردهة مرتعًا للكلاب الضالة وبعض الحيوانات البرية، بعد أن هجرها الأصحاب. حتى القهوة أضحت مرة ومرة جدًا برحيلك يا جدتي. قابلت حينها أناسًا غرباء، نعم، رغم أني عشت بينهم، أعلم سيماهم، تفاصيلهم، أحفظ كلماتهم وحديثهم، وردة أفعالهم، لكنهم كانوا غرباء. وصار يخرج من الأرض سورٌ كبير جدًا، وصل إلى حد السماء، سور وراء سور وكأنه يريد إبعادي عن الجميع، أو خيل لي هذا. وبدا الريح وكأنه يعصف بي بشدة، يلاشيني بكل قوة في حفرة النسيان. يوم، يومان، شهر، شهران، وأضحى قبر جدتي مجرد رخامة لا يزورها أحد إلا في كل مناسبة أو مشابه. وصار التراب المنثور فوق ضريحك يروي لي العديد والعديد من الحكايات... أعذريني، فلم يكن مني سوى الرحيل!...

سوى التمرد، أن أترك خلفي كل هذه الذكريات وأرحل...

لا أريد البقاء بعد اليوم، أريد فقط أن أبحث عن نفسي، أن أجدها. وحق الحق، وأنقضت أول سنوات رحيلك، وها أنا ذا أحمل حقائب الرحيل. أودع تلك الجدران. كنت أخال أن الفراق سيكون صعباً، لكنه لم يكن هكذا. كنت منتشياً من كثرة السعادة، عندما بدأت السيارة تبتعد وتبتعد، من عدلون إلى خيزران، حيث صارعت موجات القدر العالية هناك، حيث تعلمت التمرد وعاش قلمي ينشد أول حروف الثأر. كنت على حق يا جدتي عندما قلت لي ذات يوم:

«إن لكل إنسان يوم يعلم به سبب وجوده في هذه الحياة.»

وها أنا ذا علمت اليوم سبب وجودي...

أنا هنا من أجل أن أتمرد، أن أكون نقطة فصل بين عالم الجهل والتخلف وعالم التطور. عشت حياتي وأنا أصارع وجودي، والآن أعيش من أجل أن أصارع وجود التخلف، أحرر كل من كبلته العادات والتقاليد. فارسٌ مغوار في ساحات النزال، بطل شجاع في صفحات القدر. من خيزران إلى بعورتا، محطة جديدة في حياتي، مشهد جديد يكمل سرد أحداث روايتي، مكان أتمرد فيه بحرية أكبر. لا أدري ماذا ينتظرني هنا؟ وما كتبه لي الزمن؟

وانقضت الأيام، يوم تلاه يوم، ورحل عمري وانقضت زهرة شبابي. لاقطي آخر أيام العمر هنا في بعورتا كان آخر فصول روايتي. حيث كبرت وحيث عملي في مكتب البريد، فوق تلك الآلة الكاتب اللعينة. بحيث بات كل ودي وكل شعوري

وكل كياني محصورين بأناملي، أنثرهم فوق أزرارها التي تتخطى سرعتها سرعة الوقت، وورقة تلوى الأخرى، يومًا بعد يوم. وغدت أيامي سوداء تمامًا كحبرها الذي غسل كياني. وها هي قوارب الزمن والذكريات عادت لترسوا على شاطئ وجودي، معلنة نهاية الرحلة، معلنة نهاية الرواية، نهاية القصة...

وها أنا أكتب آخر قصائد الذكريات المنسية، نشيد الذاكرة الأبدية، وها أنا ما زلت أعيش بين ماضٍ يقتلني، ومستقبل مجهول يسلخ كياني، وأقف بطموحي، بتمردي، بخيالي بينهم حائرًا:

مكبلاً بقيود الحياة...

كاتب يشتكي ترهاته بين السطور...

يكتب مشاعر دفينة أصلها الوجود...

ذكريات ألفتها في عدلون...

نقطة استفهام في دفاتر الحياة...

"الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، بل هي ما يتذكره، وكيف يتذكره ليرويه."

غابرييل غارسيا ماركيز

♡رسالة شكر وعرفان♡

في نهاية هذه الصفحات، وفي لحظة يسودها الصمت بعد ضجيج الحكاية، أجدني أقف على أعتاب وداعٍ ثقيل. رحلة الكتابة كانت بالنسبة لي كغوصٍ في بحرٍ هائج، كل موجة تحملني إلى أعماق مجهولة، وكل قطرة ماء تعكس ظلال روحٍ لم أعهدها من قبل. واليوم، وأنا أغلق الكتاب على آخر كلمة، أترك خلفي أجزاءً من نفسي، وأحمل معي أثقالاً منكم أنتم، قرّائي الأعزاء.لكل قارئٍ جعل من هذه الرواية مرآةً يرى فيها نفسه، وسمح لحروفها أن تمتزج بروحه، أهديك أعمق كلمات الامتنان. لقد كنت شريكي في كل لحظة، في كل شعورٍ مختبئٍ بين السطور، وفي كل دمعةٍ سالت على الورق. وجودك هو ما أضفى على هذه الحكاية الحياة، وجعل من كلماتي المبعثرة سمفونية تنبض.أشكر أولئك الذين كانوا نبراساً لي في هذه الرحلة: جدتي التي غرست فيّ معنى الحب والصمود، عائلتي التي كانت مرآة أماني وأوجاعي، وأصدقائي الذين كانوا وشماً أبدياً على جسد الذكريات. هذه الرواية ليست فقط حكايتي؛ إنها حكايتهم أيضاً. لكل روحٍ مرت في حياتي وتركت أثرها، أقول: شكراً، فقد كنتم حجر الأساس لهذا العمل.

وأستشهد بما قاله دوستويفسكي: "أن تعيش دون حب يعني أن تعيش بلا نور."

في هذا العمل، حاولت أن أصنع من الألم حباً، ومن الذكرى ضوءاً، ومن الوجع معنى. كل سطرٍ كان نافذةً تطل على حياةٍ مفعمة بالتناقضات، حيث الألم

يتشابك مع الأمل، والفقد يتسربل بالمعنى.عندما بدأت هذه الرواية، كنت أظنها مجرد كلمات على ورق، لكن الآن أدرك أنها كانت انعكاساً لمعاركنا جميعاً. هي ليست عني فقط، بل عن كل من خاض صراعاً مع الزمن، وكل من عانق الحلم رغم ثقله، وكل من واجه الظلام بسلاح الخيال.إذا تركت هذه الرواية بصمة في قلبك، وإذا شعرت للحظة أنك لست وحدك في هذا العالم الواسع، فأنا قد حققت ما كنت أصبو إليه. لا تنسَ أن الحياة، على قسوتها، تمنحنا دائماً فسحة لنتنفس، وشعلة لنرى الطريق.

ها هي رحلتي تصل إلى شاطئ النهاية، لكنك أيها القارئ قد تبدأ رحلتك الآن.

وهكذا، أسدل الستار على هذه الحكاية، وأتركك معها، صديقاً أبدياً لها. تذكر، ليست النهاية سوى بداية أخرى في مكانٍ ما.إلى اللقاء في عوالم أخرى، وحكايات تنتظر أن تروى.

شكراً جدتي، شكراً أمي، شكراً أصدقائي، شكراً على كل شيء...

وداعاً...

_ عمر المغربي

أصدارات أخرى للكاتب

١. الرسالة الأخيرة

٢. قبل أن ينام القمر

٣. في عدلون لي ذكرى

٤. ألحان الصمت (مجموعة قصصية)

٥. ونلتقي يوما ما

٦. خلف جدار الصمت (مذكرات وسيرة ذاتية)

٧. موعد مع الشمس

٨. كابوس الدماء (الجزء الأول: إنه سر مريم)

٩. اللعنة على قلبك

١٠. حلم يبدأ من خلالك

١١. وروت لي الذكريات

١٢. رقصة السماء

عمر طارق المغربي، الكاتب اللبناني الشاب المتمرد، وُلد في ٢ سبتمبر ٢٠٠٧ في قرى عدلون اللبنانية، حيث ترعرع بين حقول الزيتون والتين والرمان. بفضل خياله الجامح وقلمه المبدع، استطاع أن يترجم واقع قريته والهموم الاجتماعية عبر رواياته المميزة. في أعماله، مثل "قبل أن ينام القمر" و"في عدلون لي ذكرى"، يتناول قضايا مهمة مثل حقوق المرأة، معبرا عن فكره العميق واهتمامه بالمشاعر الإنسانية والتفاصيل الصغيرة التي تروي قصصًا غير مُحكَمة. رغم صغر سنه، ترك بصمة واضحة في الأدب اللبناني والعربي، مقدما أسلوبًا فنيًا يدمج بين التمرد والذاكرة القروية، مُجسدًا في كل كلمة قصة حية لا تُنسى.

للحصول على هذه الكتب

وأكثر أمسح الرمز.